المُقَدِّمَة

الحمد لله رب العالمين، الذي فلق البحر فكان كُل فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ، وأصلي وأسلم على خير عباد الله أجمعين، الذي كانت بعثته فرقانا بين الحق والباطل، وعلى آله وصحبة، ومن اهتدى بهديه إلى يوم الدين، وبعد:

فلقد مرّ مصطلح "المفارقة" على السمع مرات عديدة، ولم يتوقف الذهن أمامه لشهرته، وتداوله في كتابات أهل اللغة والدين، وكم من المصطلحات السيَّارة في حياتنا العلمية تحتاج إلى تحقيق، ومن المفاجأة أنه بعد البحث في المراجع ذات الصلة لم أجد لهذا المصطلح تعريفاً، أو علماً ينتسب إليه، حتى تبين لي بعد لأيٍ أن العثور على مصطلح "المفارقة" في المكتبة العربية بعيد المنال، وأن البحث عن علم ينتسب إليه هذا المصطلح كالبحث عن المجهول، وتلك كانت أول المفارقات؛ لأنه شائع على الألسنة، موزع بين صفحات الكتب، شاخص لدى المهتمين بالبلاغة والأدب والنقد، بل وتراه في كتب أهل التفسير، وفي لسان المتكلمين في شتى المجالات، ومع ذلك لا تعرف نسبه ولا حدَّه، بل لا تكاد تعرف أين تفتش عنه؟

مما يعني أن هناك حاجة لتحريره، وضبط أصوله، ومعرفة نسبه،وهذا من الأهمية بمكان لأن أعظم مجالات العلم – أيَّ علمٍ – هو تحرير مصطلحاته، وضبط قواعده وأصوله، ولا يعد العلم علما إلا بذلك، ولا يرقى فن من الفنون إلى مراتب العلوم إلا إذا حُدّدت أقسامه، وحررت مصطلحاته، واستقرت عند المشتغلين به، فلا يقال مصطلح كذا إلا إذا استحضر السامعون مدلوله، وشواهده، وبهذا ينشأ الناشئة وهم يعرفون حدود العلم وضوابطه.

ولفظة "المفارقة" تظهر بوضوح في كتب الفقه، ويقصد بها مفارقة المرأة زوجها، أو الرجل زوجته، فيقولون في باب الطلاق – مثلاً –: يحق للزوج عند

انتهاء العدة المفارقة أو الإمساك. وإذا انتقلت إلى باب الصلاة تراهم يقولون: إذَا قام الْإِمَامُ لِخَامِسَةٍ يُخَيَّرُ الْمَأْمُومُ بين الْمُفَارَقَةِ والانتظار.

وفي باب البيع يقولون: إن البيع ينعقد بمفارقة المتبايعين للمجلس، لحديث "البيعان بالخيار ما لم يتفرقا..."(١).

كما تظهر لفظة المفارقة في كتب الدعوة والترغيب والترهيب ويقصد بها: مفارقة الروح للجسد، ومن ذلك ما ذكره الإمام الغزالي: من أن من آثار الصدق والإخلاص وتمام الوفاء أن تكون شديد الجزع من المفارقة نفور الطبع عن أسبابها، ويقولون: إن الروح بعد المفارقة تلحق بأشكالها، وأخواتها، وأصحاب عملها، فتكون معهم هناك(٢).

لكن "المفارقة" في شواهد العلماء تتحدث عن أمر آخر، والمفارقة التي استعمالات أهل الأدب والبلاغة لا تنحو هذا المنحى، بل هي باب آخر، ومفهوم آخر، والعجيب أنك لا تجد إشارة إلى هذا المفهوم، ولا تجد تعريفا لهذا المصطلح، بل لا تجد مصطلح المفارقة في مفردات كتب البلاغة أو الأدب.

فمن أين جاء؟ وماذا يراد به؟ لن تجد إجابة!! هل نحن أمام مصطلح مجهول النسب؟!!

وإذا كنا كذلك لماذا استخدمه الكتاب وكأنه معلوم للكافة؟ أم أنه ليس عربي المولد؟

---

(١) أخرجه الشَّيْخَانِ فِي «صَحِيحَيْهِمَا» بِهَذَا اللَّفْظ كُله من رِوَايَة ابْن عمر (رضي الله عنهما) و وكذا رواية حكيم بن حزام في باب الطيب للجمعة عند البخاري ٢١١٠، وباب الصدق في البيع عند مسلم ١٥٣٢.

(٢) إحياء علوم الدين للغزالي ٢ / ١٨٨ وانظر كتاب البرزخ لمحمد حيدر ص ٢٤٧.

تقول نجاة علي: (المفارقة مصطلح غربي لم تعرفه العربية، ولم يدخل دراساتها إلا من وقت قريب عبر الترجمة..... وتواصل قائلةً:

والحقيقة أن هذا المصطلح – تحديدًا – سبب جدلاً واسعًا حوله في الغرب، فهو مصطلح شائك ويثير الالتباس. فإذا كان «ما لا تاريخ له يمكن تعريفه» على حد تعبير "نيتشه"؛ فإن مسألة إيجاد تعريف محدد لهذا المصطلح المراوغ، العصي على الفهم، يعد مسألة صعبة جدًّا نظرًا لتاريخه الطويل المتشعب.

فهو أشبه بجسد قطعت أوصاله – دون ما اتفاق مسبق – ووزعت بين العديد من اللغويين والفلاسفة والبلاغيين، وآخرين تداولوه بأشكال مختلفة، وطوروه بحيث أصبح له في كل سياق يرد فيه معنى مختلف وجديد)([1]) .

هكذا ذهبت "نجاة علي" إلى غربية المصطلح، وأنه نتاج مجموعة من الدلالات، وأنه مصطلح غامض، وله فرع في كتب اللغة والبلاغة والفلسفة.... إلى آخر هذا الكلام الذي لا يضع يدك على شيء بل يزيدك حيرة، ويغلق أمامك الباب حتى لا تنظر في لغة العرب !!!

وزاد من تعميق هذه النظرة أنك لا تستطيع حتى اليوم أن تنسب المفارقة إلى أي علم من علوم اللغة، والعجيب أنه لم يدَّعِ أحدٌ حتى الآن نسبة المصطلح إليه، فهو أشبه بالحاضر الغائب، وهذه كلها أمور تفتح الباب للبحث والتنقيب، لتجيب عن عدة أسئلة يستحق كل واحد منها البحث والتفتيش، وهي:

(١) مجلة نزوى تصدر عن المؤسسة العمانية للثقافة والإعلان بحث لنجاة علي "العدد ٥٣" في ١٨ / ٧ / ٢٠٠٩.

- هل مصطلح المفارقة ينتمي إلى البلاغة أم إلى غيرها؟
- هل عرف العرب القدامى هذا المعنى أم لا؟
- ما حدُّ هذا المصطلح؟ وما أهم الشواهد التي تحمل دلالته؟
- هل يوجد في القرآن الكريم والحديث الشريف شواهد عليه؟
- أين نضعه في علم البلاغة إن كان من غراسها؟. أسئلة كثيرة تحتاج إلى وقفات، يحاول هذا البحث الإجابة عنها ولتكن البداية من رحم اللغة العربية ومعاجمها.

سعيد جمعة

٢٠١٣/١٢/٢٦ م

المفارقة في اللغة

لا يجوز البداية في التعرف على مصطلح شاع بين الأدباء إلا من عند عتبات اللغة، فلا ينفصل لفظ في لغة العرب مهما تعددت معانيه عن دلالته اللغوية الأولى، ومهما ساح اللفظ في ضروب الدلالات، وتنوعت معه السياقات، ودل على أشياء تقترب من أصوله أو تبتعد، إلا أن أرومته لا تزال باقية، ونسبه لا يزال موصولاً بالجذر الأول، ومن هنا كان الحديث عن دلالة اللفظ – أي لفظ – لابد أن تبدأ من نقطة الانطلاق، وهي الدلالة اللغوية.

وكتب اللغة والمعاجم متنوعة المناهج والمشارب، إلا أن "معجم المقاييس" لابن فارس يظل النبع الأول الذي يجب أن نبدأ من عنده، ذلك لأنه يضع لك الجذر اللغوي، والمعنى الذي يخرج منه، وهل هو أصل واحد أم أكثر من أصل.

ولفظة المفارقة من (الفاء والراء والقاف وهي أُصَيلٌ صحيحٌ يدلُّ على تمييز وتزييلٍ بين شيئين. من ذلك الفَرْق: فرق الشعر. يقال: فرَقْتُه فَرَقاً. والفِرْق: القطيع من الغَنَم. والفِرق: الفِلْق من الشَّيء إذا انفَلَقَ، قال الله تعالى: ﴿فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾﴾ (الشعراء: ٦٣).

فهناك تباعد بين كل من الفِرقين يسمح بمرور الجموع الحاشدة لذلك قيل في اللغة: (المفارقة: المباينة، وتباين القوم: تهاجروا وتباعدوا)([1]).

فهناك في الدلالة اللغوية بُعدٌ شديد بين أمرين أدَّى للتفارق، والمفارقة هي المباينة والمفاصلة والانقطاع، والافتراق أيضًا مأخوذ من الانشعاب والشذوذ، ومنه الخروج عن الأصل، والخروج عن الجادة، والخروج عن الجماعة.

(١) القاموس المحيط "فرق".

بل إنك تلحظ في الدلالة اللغوية للمفارقة أمرا نفسيا، مترتبا على البعاد مثل البغض بين المتفارقين، والعناد بينهما، ولذلك فسر الفيروزبادي "المجانبة والمعاندة" بالمفارقة، ليشير إلى هذا البعد النفسي بين الطرفين، ولعل هذا جعل جملة: "فارقتك "إذا قالها الرجل لامرأته من ألفاظ الطلاق الصريحة([1]) .. ومن الباب أيضا إفراق المحموم من حُمَّاه، وإنما يكون كذالك لأنَّها فارقَتْه.... وكان بعضهم يقول: لا يكون الإفراق إلاَّ من مرض لا يُصيب الإنسانَ إلاَّ مرّةً واحدةً كالجُدَرِيِّ والحَصْبة وما أشبَهَ ذلك، وناقةٌ مُفْرِقٌ: فارَقَها ولدُها بمَوْت ([2]).

والفُرْقانُ: كتاب الله تعالى فَرَقَ به بين الحقِّ والباطل. والفُرْقان: الصُّبح، سمِّي بذلك لأنه به يُفْرق بين اللَّيل والنَّهار، ويقال لأنَّ الظُّلْمة تتفرَّق عنه..... والفارِق: الخَلِفَة تذهبُ في الأرض نادَّةً من وجَع المَخَاض فتُنْتَج حيث لا يُعلم مكانُها؛ والجمع فوارقُ، والفارق من الناس: الذي يَفرِق بين الأمور، يَفْصِلُها. وفَرَقُ الصُّبْحِ وفَلَقُه واحد.)...([3]).

هذه بعض الإشارات التي تحملها هذه المادة، وأرجو أن تلحظ معي هذه الظلال التي تحيط بالمادة، لأنها من الأهمية بمكان في تحديد دلالة المفارقة.

لاحظ هنا: (قطعة فارقت معظم الغنم) (إفراق المحموم) (لا يكون الإفراق إلا من مرض).

(وناقة فارقها ولدها بموت) (والفارق: الخِلفة تذهب في الأرض نادّة من وجع المخاض).

---

(١) الفقه الإسلامي وأدلته لوهبة الزحيلي ٩/ ٤٥٤.

(٢) لسان العرب "فرق".

(٣) لسان العرب فرق.

وانتبه إلى ما يحيط بالمعنى من ألمٍ، وحزن، وكأن المفارقة في دلالتها اللغوية فصلٌ، وبعدٌ بين أمرين متلازمين مما يبعث على الحزن والألم و ومنه فارق الرجل امرأته مفارقة وفراقا، ولعل قول سيدنا الخضر لنبي الله موسى ﴿ ...هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ... ﴿٧٨﴾ ﴾(الكهف: ٧٨). يصور هذه الحالة التي كان عليها، لرغبته في ملازمته، ولعلمه أيضا برغبة سيدنا موسى في ملازمته، لكنه الشرط الذي اتفقا عليه، وقضاء الله الذي يسبق كل شيء.

المهم أن انفصال كل منهما عن الآخر كان مؤلما للطرفين لذلك سماه فراقاً، وبهذا يتبدى أول ملمح من ملامح المفارقة في الدلالة اللغوية، وهو البعد الشديد بين أمرين، بعداً قد يبعث على الألم والحزن.

هل نستطيع الآن أن نعرف المفارقة في الاصطلاح؟

لقد توقفت في أن أضع تعريفاً للمفارقة في الاصطلاح هنا أم في آخر هذا البحث، ولقد مضيت في البحث وأنا عازم على وضع التعريف الاصطلاحي آخر البحث **لعدة أسباب:**

منها: أنه لا يوجد حتى الآن اصطلاح، فلفظ "المفارقة "ليس مندرجا حتى الآن داخل علم من العلوم، ولا يعرف له نسب حتى أقول – مثلا – اصطلح أهل النحو، أو البلاغة، أو الأدب على أن تعريفه كذا...

ومنها: أن ما أكتبه مدعيا أنه تعريف للفظة إنما هو رأيي، ولم يتفق أحد معي على ذلك حتى الآن حتى يقال مصطلح.

ومنها: أن الرأي الشائع حتى الآن أن "المفارقة" مصطلح غربي، وغامض، وشائك، ويحمل عدة أمور.

ومنها: وهذا مهم – أنني لم أتوصل إلى تعريف أرتضية إلا آخر البحث، بعد مراجعة النصوص، وتعليقات أهل العلم عليها.

كل ذلك دفعني إلى أن أجعل التعريف الاصطلاحي – تجاوزا – آخر البحث، وصنعت ذلك حتى آخر مراجعة، وفي آخر مراجعة وجدت أن اللائق بالقارئ وضع التعريف هنا، وليس آخر البحث حتى لا أرهق القارئ معي، وحتى يقيس ما جئت به من شواهد على هذا التعريف، ولذلك وجب عليّ –هنا– التنبيه على أنه قد يفاجأ القارئ بأمورا في الشواهد لا تتوافق مع هذا التعريف – في الجملة – وذلك لأنها كانت في مرحلة الكشف عن مدلول المفارقة في الاصطلاح، فهي تقترب من هذا المدلول حينا، و تبتعد عنه حينا آخر، لكن في النهاية هي محاولة لضبط مصطلح استخدمه أهل العلم، ولم يدرجوه في كتبهم.

والآن ما تعريف المفارقة في الاصطلاح؟

من خلال الشواهد الكثيرة التي راجعتها، وتبينت من خلالها السلك الرابط بينها أستطيع أن أرسم للمفارقة حداً أظن انه يلم بمعالمها، ويسهل على القارئ إرجاع الشواهد إليه، بل وإبداع كثير من المفارقات من خلاله:

فالمفارقة تعني:

- **(المسافة الفاصلة بين ما هو كائن من المعاني وبين ما ينبغي أن يكون)**
- **أو(المسافة بين المتوقع وغير المتوقع)**

ففي هذا التعريف تجد أن كل ما يصدر عنه عكس ما يُتوقع يعد مفارقة في العقلية العربية، ويشمل ذلك المفارقة في اللفظ، سواء أكان مفردا أم جملة، كما يشمل المفارقة في الشخصية فردا كانت أم جماعة، كما يشمل المفارقة في الموقف.

فحين يدل اللفظ على شيء لا يتوقع، وحين ترى الرجل يتسم بعكس ما هو عليه، فيطلق على القزم: المارد، وعلى الجبان عنترة، وعلى البخيل حاتم، وحين تنتظر معنى فتفاجأ بعكسه، فأنت في حديث مفارقة، ومع أنها تُصوِّر التناقض مع الواقع إلا أنها قد تعطي صورة أصدق من الحقيقة. لكنها في جميع الأحوال تصور التضاد بين المظهر والمخبر، فإذا جئت إلى بخيل مثلاً، وقلت له: مرحباً بك يا حاتم. فأنت تريد التهكم، والسخرية، وفي الوقت نفسه تؤكد على معنى بخله، وحين تقول لجبان: جاء عنترة، فأنت مع دلالة المفارقة تؤكد على المعنى الذي تريد إيصاله للسامع، وقريب من هذا ما ذكره الثعالبي (٤٢٠هـ) في فقه اللغة أن العرب تقول للرجل تستجهله: (يا عاقل) وللمرأة تستقبحها: (يا قمر) فهناك علاقة بين التناقض الشديد والمفارقة، فكلاهما تعبير عن حالة اللا معقول، وخروج الأمر عن حد العادة (فأنت تنقله من واقع البخيل إلى تصور حاتم الطائي أصل الكرم. وبذلك نقلت البخيل نقلتين: نقلة من وضعه كبخيل؛ ثم السخرية منه؛ لأن قولك لبخيل ما: يا حاتم، هو تقريع وتهكم وسخرية واستهزاء، لأنك نقلته من وصف خسيس وحقير إلى وصف مقابل هو سَام ورفيعٍ وعظيم تحقيرا له واستهزاء به، ومن المقارنة يبدو الفارق الكبير.

وإذا ما جئت مثلاً لرجل طويل جداً، وقلت: مرحبا بك يا قزم. هذه هي المفارقة، كما تقول لقصير: مرحبا بك يا مارد. أو إذا جئت لطويل لتصافحه، فيجلس على الأرض ليُسلم عليك.. هذه أيضاً مفارقة. وإن جئت لرجل قصير لتصافحه فتجلس على الأرض لتسلم عليه فهذه هي السخرية والتهكم... وهذه المفارقات إنما تأتي للأداء البلاغي للمعنى الذي يريده المتكلم،.... وحين تريد تصعيد أمر ما، فأنت تنقل مخاطبك من شيء إلى الشيء المقابل)([1]).

(١) خواطر حول كتاب الله تعالى للشيخ/ محمد متولي الشعراوي ٤٧ / ٥١.

كذلك حين تتوقع من الشخص شيئا ثم تفاجأ بعكس ما تتوقعه، أو ترى له حالا لا ينتظر منه فتلك مفارقة، ومن المفارقة ما ذكر عن سيدنا عمر بن الخطاب أنه وأد ابنةً له في الجاهلية وكانت تنفض التراب عن لحيته وهو يحفر لها حفرتها(١)، وحين ترى موقفا غير متوقع، ويسير عكس ما يترقبه الجميع فتلك مفارقة، ومن ذلك أن أحب النساء إلى رسول الله (ﷺ) وهي السيدة عائشة هي ابغض النساء إلى من يزعمون حبهم لآل بيت النبي. (ﷺ)، ومنها أن الإسلام وهو الدين الخاتم وآخر حلقات النور السماوي هو الذي تعرض لأكبر قدر من الهجوم والشبهات، ومنها أن شهر الصيام هو أكثر شهور السنة استهلاكا للطعام..... إلخ.

وأنتقل بك إلى لغة الشعر، فهي معدن الدلالات، وأصل المعاني، وموئل اللسان الفصيح لنرى هل عرف الشعر القديم دلالة المفارقة؟

(١) يقول عبد السلام بن محسن آل عيس صاحب كتاب دراسة نقدية في المرويات عن شخصية سيدنا عمر بن الخطاب وسياسته الإدارية " ولم أجد من روى ذلك عن عمر فيما اطلعت عليه من المصادر ولكني وجدت الأستاذ عباس محمود العقاد أشار إليها في كتابه عبقرية عمر، فقال: وخلاصته ا: أنه (ﷺ) كان جالساً مع بعض أصحابه إذ ضحك قليلاً، ثم بكى، فسأله من حضر؟ فقال: كنا في الجاهلية نصنع صنماً من العجوة٢، فنعبده، ثم نأكله، وهذا سبب ضحكي، أما بكائي، فلأنه كانت لي ابنة ، فأردت وأدها، فأخذتها معي، وحفرت لها حفرة، فصارت تنفض التراب عن لحيتي، فدفنتها حية.... " ١ / ١١١

المفارقة في الشعر العربي

عرف الأدب العربي القديم المفارقة، واستعمل الشعراء في العصر الجاهلي هذا اللون من التعبير، فجسدوا هذا الشعور، وصوروا هذه الدلالة في أبهى صورها، مما يدل على تجذر هذا المعنى في قلب العربي القديم، ويرد على من زعم أن هذا اللون من التعبير لم يعرف إلا عند النقاد الغربيين، ومن النصوص التي ترى فيه مفهوم المفارقة واضحا جلياً أبيات الشنفرى في لامية العرب حين قال:

ولي دُوْنَكُمْ أهْلُون: سِيدٌ عَمَلَّسٌ ** وَأرْقَطُ زُهْلُولٌ وَعَرْفَاءُ جَيْئَلُ

همُ الأهلُ لا مستودعُ السرِّ ذائعٌ ** لديهمْ ولا الجاني بما جرَّ يخذلُ(١)

والشنفرى في هذين البيتين جعل من السباع بشرا، في الوقت الذي تحول فيه البشر إلى ذئاب، بل إنه جعل من السباع من أول البيتين أهلا وموئلا، وهذه المفاصلة ناتجة عن ألمٍ أحاط بالنفس حتى جعلها تقطع بالأمر دون تردد (ولي دونكم أهلون)... كذا...

ثم زاد من زفرة المفارقة حين كشف لنا أن الأهلين الجدد ليسوا سوى (ذئب ونمر وضبع) ولعله لمح الاستغراب في ذهن السامع فأعاد اللفظ الموجع (هم الأهل) وهذا تعبير يفيد القصر، كأنه قال: لا غيرهم من هؤلاء الموصوفين بأنهم بشر، فهو يصحح تصورات الناس الذين ظنوا أن البشر هم الأهل، فنفى

---

(١) (السِّيد: الذئب – والعملس: الذي فيه سواد وبياض – والأرقط: النمر – والزهلول: الخفيف – والعرفاء: الضبع – والجيئل: من أسماء الضبع) راجع: بلوغ الأرب في شرح لا مية العرب (الزمخشري –المبرد– العكبري – ابن زاكورالمغربي– ابن عطاء المصري) جمع وتحقيق محمد القاضي ومحمد عرفان – المكتبة التجارية بمكة المكرمة ص ٦٠ – ٦٧.

ذلك بأسلوب يحمل من المرار مالا تستطيع العبارة إخفاءه، حين أخرج هذه الجملة المؤلمة التي تحمل زفرات الموجوع، وراجع النظر إلى هذه الهاء الشاخصة في الكلمتين "هم الأهل"، فهي من الحروف الحاملة لحرارة الوجع الكامن في القلوب، والمصورة لمرارة الخداع الذي لقيه !!.

إن المسافة هنا واسعة جدا بين الأمرين، حيث المتوقع أن تكون السباع سباعا، والبشر بشرا، ويكون الأمن والطمأنينة في جانب البشر، والخوف والحذر من السباع، هذا هو الأصل، ثم تبعد المسافة فيكون لبعض البشر طبائع الغدر والخيانة، ثم تبعد أيضا فيكون البشر جميعا كالسباع في أخلاقهم من حيث أن القوي يأكل الضعيف، ثم يزداد البعد حين ترى في السباع من هم أكثر أمناً من البشر، ثم تبعد فيكون الأمن كله عند السباع، والخوف كله عند البشر، ثم يصل الأمر حد اللا معقول حين يتخذ الشاعر من السباع أهلا، ويقصر هذا المعنى عليهم، إن الأمر أشبه بحالة الانقلاب في المسلمات، إن الشنفرى يصحح المعطيات التي اعتادها الغافلون، فليس الأهل من يُطلق عليهم الناس بشرا، كلا، كلا،..... الأهل هم الذين يُستَودَعون السر، الأهل هم الذين لا يخذلون من استجار بهم ولو كان جانياً، وهذه المسافة البعيدة بين ما يراه الناس طبعيا، وبين ما يعيشه الشاعر ويلمسه بيديه، أقول: هذه المسافة بين المتوقع، وغي المتوقع هي المفارقة، وهي مسافة نفسية، وبعد بين المعطيات الكائنة لدى الناس والمعطيات الكائنة لدى الشاعر، وكأن عالمه غير عالم الناس، وما يستقر في نفسه مغاير لما هو مستقر في نفوس الناس، بل مضاد له.

وهكذا يرسم الشنفرى صورة رائعة للمفارقة، فلقد استبدل بالأهل أهلا من السباع، لا لشيء إلا لأنه وجد الصفات التي ينبغي أن يتحلى بها البشر قد ضاعت، فلا نجدة، ولا مروءة، ولا حفظ للسر، في الوقت الذي وجدت هذه

الصفات وغيرها في عالم السباع، وجدت في الذئاب والضباع؛ لذا صاروا أهلاً وعشيرة، وهذا المعنى هو تجسيد للمفارقة، بحيث ترى الشر مما يتوقع منه الخير، وفي الوقت نفسه ترى الخير فيمن تتوقع منه السوء والشر، وهذه الحالة من التناقض الشديد تبعث في النفس غضبا، وتؤجج فيها رفضا، وتبعث فيها نفورا من هذا الواقع الأليم، وهذا الغضب والرفض والنفور لا يلبث أن يدفع بصاحبه إلى الفراق، فراق هذا الواقع، والبعد عنه وهذا ما ألمَّ بالشنفرى، وأحاط به فدفعه إلى اعتزال هذا العالم المتناقض الذي تبدلت فيه الأشياء، وأصبح مكمن الأمن هو هو مكمن الخطر، ولا تكتمل المفارقة هنا حتى يصبح مكمن الخطر هو هو مكمن الأمن!!!!.

ولذلك ترى هذا المعنى من أكثر وسائل التعبير علقة بالنفس، لأنه يمثل لها حالة من حالات التنفيس عما ألم بها من هموم حتى لا تصاب بالعمى، أوليس الحزن والألم يصيب بالعمى؟ !!!.

****

وهذا نموذج آخر يكشف عن هذه الدلالة: ذكر الجاحظ أن الأحنف (وَفَدَ في وجوه أهل البصرة الى عبد الله بن الزبير، ثم تكلم أبو حاضر الأسيدي – وكان خطيبا جميلا – فقال له عبد الله بن الزبير: أسكت فو الله لوددت أن لي بكل عشرة من أهل العراق رجلا من أهل الشام، صرف الدينار بالدرهم، قال يا أمير المؤمنين ! إن لنا ولك مثلا أ فتأذن في ذكره؟ قال: نعم. قال: مثلنا ومثلك ومثل أهل الشام قول **الأعشى** حيث يقول:

علقتها عرضا وعلقت رجلا ** غيري وعلق أخرى غيرها الرجل

أحبك اهل العراق، وأحببت أهل الشام، وأحب أهل الشام عبد الملك بن مروان.

وذكر هذه القصة ابن حمدون، تحت عنوان التقريع والتوبيخ: فقال في التذكرة الحمدونية تحت عنوان: باب في التقريع والتوبيخ ثم ذكر القصة...

وراجع معي هذه الصورة التي تجمع بين المتنافرات، وتمتزج فيها ألون العجب والألم، والتهكم والسخرية، والغرابة.... فكل طرف متعلق بمشغول عنه، وكل قلب موصول بنافر منه، إنها صورة تجسد لك ضلال القلوب في الهوى، وعمى البصائر في الوداد، وتحكم الأقدار في النفوس، وكأن كل قلب مفارق لمن يريده، ومتعلق بمن يفارقه.

وهذا ملمح آخر من ملامح المفارقة في الشعر القديم حيث ترسم صورة للتهكم المرير، ومشهدا من مشاهد التندر، فلقد وقع الأعشى في هواها رغما عنه، وهذا ما تراه في بناء الفعل للمجهول (عُلِّقتها)... ثم الإيغال في هذا المعنى حيث يقول "عَرَضَاً" أي دون قصد، وهذا قد يقبل، فالبُلهُ في الدنيا كثير، لكن لاحظ هذا التناقض في الصورة حين تشارك هذه المُعلَّقة عَرَضَاً في رسمها، لأنها ودون سابق إشارة تُعَلَّقت برجلٍ آخر غيره، وأيضا دون قصد ولا رغبة ولا إرادة، إنها مُسيَّرة هنا تماما مثله، وتكتمل العجائب، وتتم المفارقة حين ننظر لهذا الرجل الآخر الذي عُلِّقت به دون قصد فنراه عُلِّق هو الثالث بامرأة ثانية غيرها.

بهذا المشهد الذي يستحيل صورة متحركة ترى فيه الأطراف الثلاثة تسير حيث يُرادُ لها دون أن تريد، وهذا لب المفارقة، إنها تجسيد للتناقض في كل شيء، وحدوث اللامعقول، والتعبير عن اللا منطق، ورسم صورة الغير متوقع.

فالمسافة هنا قائمة بين هذه المتوالية، الشاعر ومحبوبته، ثم بين محبوبته ومن تعلقت به، فالكل يبتعد عن الآخر بقدر اقتراب الآخر منه، ففي الوقت الذي يقتر هو من هذه المرأة تبتعد هي عنه في اتجاه آخر، ونحو رجل آخر، وفي الوقت الذي تقترب هي من الرجل الآخر يبتعد هذا الرجل الآخر عنها إلى محبوبة ثانية، إنها حالة من الطرد المركزي الذي يجعل كل طرف يبتعد عمن يقترب منه.

وحين تراجع هذه الصورة التي أراد الشاعر الكشف عنها تجد أنه لا يريد التعبير عن أساه بقدر ما يريد إلقاء اللوم على الأقدار التي تضع الأمور – حسب فهمه هو– في غير مواضعها، وتعطي الشيء لمن لا يريده، وتحجب عنه ما يريد، إن الصورة تحولت من عالم المشاهدة بالعين إلى عالم الذوق، والإحساس بمرارة الواقع، تحولت من حس إلى حس آخر، ومن طريق إلى طريق آخر، هكذا أراد الشاعر أن يوصل إليك ما في قلبه، أو إن شئت قل: أراد أن يذيقك ما يذوقه من مرار، وهذا ملمح آخر من ملامح المفارقة، أن فيها إحساساً بالألم والمرار، والمفارقة هنا لم تجمع بين طرفين، بل زادت ثالثا، وهو هذا الذي علق أخرى، وهذا أعطى للصورة ماءً جديدا حتى امتلأت، فاينما نظرت إلى واحد من الثلاثة أشفقت عليه، وتوجعت من غفلته، لكن المفارقة تكمن في ضم الثلاثة إلى بعضهم حتى ترى المشهد مكتملا كما أراده الشاعر.

****

وإذا راجعت أشهر ما في الشعر العربي القديم، وهو الوقوف على الأطلال تجد ماءً جديدا، ورافدا متجددا للمفارقة، ذلك لأن الوقوف على الديار إنما هو وقوف على الخراب، والرسوم البالية، والحطام المتناثر ومع ذلك يرى عبد

الملك مرتاض فيها شيئا آخر فيقول: (من عجيب المفارقات، ولطيف المباعدات، أن يغتدي الخراب اليباب مظنّةً للجمال البديع، ومقصدةً لاستعادة الذكريات العذاب.

فالرسم الدارس من حيث هو ديارٌ بالية، وبنايات متهدّمة لا جمال فيه، ولا إلهام منه، ولا سعادة تجثم حَوله ..... بيد أنّ الذي جعل من جَلاله جمالاً، ومن شقائه سعادة، ومن وحشته أَلفَةً، ومن بشاعته نُضرَةً؛ هو تلكم الذكريات الجميلة التي كان يطويها في نفسه، وتلك العلاقات العاطفية الكريمة العارمة، وتلكم الأزمنة التي قضّاها أناسٌ فيها حتّى ضجّت بهم، وغصّت بوجودهم)(١) فهو يرى في الشقاء سعادة، وفي الوحشة ألفة، وفي البشاعة نضرة!!!

ولعلك لم تنس هذا البعد النفسي في الوقوف على الأطلال، وهذا الألم الذي يستدعيه الشاعر وهو واقف على منازل الأحبة وقد تبدلت معالمها، حتى تحول الوقوف إلى بكاءّ، والمرور إلى حنين واستدعاء، ومع أن الديار قد درست إلا أن الشاعر بوقوفه عليه يرسم لها صورة ناضرة، تشع بالحياة من جديد، وكأنه ينفخ فيها روح المحيا، وينزل عليها من شعره قطرات الغيث فتستحيل عمارا وهي يباب، وتدب فيها الحياة وهي خراب.

ليست المفارقة في الوقوف على الديار، ولكن في قدرة هذه الديار – وقد درست – في بعث الحياة الرغدة في قلب الشاعر ونفسه، فكيف يتأتى من الخراب حياة، ومن البقايا جمال، ذلك من روافد المفارقة.

****

(١) المعلقات السبع مقاربة سيميائية لعبد الملك مرتاض – من منشورات اتحاد الكتاب العرب ١ / ١١٤.

وشاهدٌ آخر ذكره الجاحظ، قال: (قال محمد بن سهل راوية الكميت: أنشدت الكميت قول الطرماح

إذا قُبِضَت نفسُ الطِّرمَّاحِ أَخْلقتْ ** عُرَى المَجْدِ واسْتَرْخَى عِنانُ القصائدِ

فقال الكميت إي والله وعنان الخطابة والرواية!!!!

قال ابوعثمان الجاحظ: – وهنا موطن المفارقة –:

ولم ير الناس أعجب حالا من الكميت والطرماح: وكان الكميت عدنانيا عصبيا وكان الطرماح قحطانيا عصبيا.

وكان الكميت شيعيا من الغالية وكان الطرماح خارجيا من الصفرية.

وكان الكميت يتعصب لأهل الكوفة وكان الطرماح لأهل الشام.

وبينهما مع ذلك من الخاصة والمخالطة ما لم يكن بين نفسين قط ثم لم يجر بينهما صرم ولا جفوة ولا إعراض ولا شيء مما تدعو هذه الخصال إليه)([1]).

إن الواقع يفرض المسافة البعيدة، والموجود اقتراب شديد، وكأن المفارقة ليست مسافة في البعد فقط، بل مسافة في البعد المتوقع، حتى يصل البعد المتوقع حد التناقض.

ولاحظ هذه الصورة حين يتجسد التناقض بين طرفين وكل طرف يظهر منه عكس ما يتوقع، فالذي بين "الكميت والطرماح" عكس ما يتوقعه كل عاقل، وكان من المفترض أن يكون بينهما دماء، وعداء، وقطيعة ليس لها دواء، لكن المفارقة تكمن في أن هذين الطرفين – رغم انحياز كل منهما إلى الفريق المعادي للطرف الآخر – متحابان، متواصلان، بل يمدح كل منهما الآخر، ويرى حسناته شاخصة، وأفضاله ظاهرة..

****

(١) البيان والتبيين للجاحظ ١ / ٣٨.

إن المفارقة هي الجمع بين طرفين يرسم كل منهما عكس ما يتوقع منه، واقرأ معي قول الشاعر:

إذا لم تصادف في بنيك عناية ** فقد كذب الرائي وخاب المؤمـــل

فموسى الذي رباه جبريل كافر ** وموسى الذي رباه فرعون مرسل

وهذا النموذج يختلف عما سبق فالشاعر هنا يريد منك أن تشاركه في التعرف على ملامح الصورة، فهناك استدعاء للمشهد من العالم القديم لتقيس به، أو تقيس عليه ما تراه في بنيك، ولن يصل الحال إلى هذه الدرجة من التناقض، فما الذي تتوقعه حين يتربى وليد في كنف ملك من الملائكة؟ لا شك أنك تتوقع وليدا على أخلاق الملائكة، لكن الحاصل أن كانت ثمرة التربية التي قام بها الملك المقرب ثمرة غير متوقعة، لقد كانت بعيدة عن الخيال إنها أخرجت للناس كافرا، فهل تتوقع هذا؟!! جبريل (عليه السلام) يتعهد إنسانا كما تقول الرواية، فتكون النتيجة هكذا!!.

ولا تكتمل المفارقة حتى ترى الوجه الأخر، وهو أن يتربى وليد في كنف طاغية فيخرج على صورة لا تتصور، لقد أصبح الوليد مرسلا من ربه، وهنا تظهر طول المسافة بين النموذجين، وهي مسافة لا تنتظر ولا تتوقع، والشاعر يريد منا النظر إلى هذا البعد القائم بين الطرفين، وإياك أن تبعد عن جمال هذا المشهد، أو أن تفسده بالقول بأن ذلك كله جاء بعلم الله تعالى، وسيدنا موسى ليس تربية فرعون، ولكنه تربى على عين الله تعالى، فهو القائل: "ولتصنع على عيني"، لأن الشاعر، وكل قارئ يعرف هذا، لكن المعنى الذي يريد الشاعر أن يرسمه هو أن الأمور لا تسير حسب ما يقدره الإنسان، ولكن الأمور تسير حسب ما تدبره المقادير، فلا تذهب نفسك على شيء حسرات.

ولكي تتلمس ذلك راجع عالم المشاهدة وانظر إلى ما يعج به من الغرائب والعجائب، التي لم يستطع العقل قبولها إلا بوضعها تحت عنوان غرائب وعجائب، فإن تيقنت منها فاعلم أنها أول الخيط الذي يوصلك إلى المفارقة.

إنني هنا أريدك أن تتلمس معي معالم هذه الدلالة حتى نستطيع أن نضع مصطلح المفارقة في الأرض التي تناسبه، هل نضعه في علم المعاني أم البيان أم البديع؟

إن المفارقة قبل أن تكون وسيلة من وسائل البيان هي تعبير عن حالة التناقض للأشياء، حالة التحول، وخروج الأمر عن المعهود، حالة تغيير الطباع التي اعتادها الناس، ولذلك تمتزج المفارقة غالبا بأساليب أخرى مثل الهجاء، والسخرية والتهكم.

إن من ملامح المفارقة المفاجأة ففي المفارقة خروج عن المألوف، وفي المفارقة لفت للانتباه، وفي المفارقة جذب للأسماع والأبصار، إنها ضوء لامع في ساحة المعاني المرسلة، ومنعطف فاصل في طريق الدلالات المتتابعة، وإذا لم تلفت المفارقة انتباهك فقد خرجت عن حقيقتها، فأنت ترى اللا معقول شاخصا حين تتوقع المعقول، وتشاهد تبدل الأحوال، وانقلابها.

وأستطيع بعد ذلك أن أقرر:

أن مفهوم المفارقة يضرب بجذورة في اللسان العربي القديم، فلا مجال هنا للحديث عن غربية المصطلح، أو جهل العرب به.

وأنطلق الآن إلى البحث عن هذه الدلالة في القرآن الكريم لتتم الصورة، ويزداد وضوحها.

المفارقة في القرآن الكريم

لقد حمل القرآن الكريم كثيرا من صور المفارقة، وجاءت آيات كثيرة تتحدث عن نماذج من البشر تقول الشيء وتفعل ضده، وتظهر خلاف ما تبطن، ونماذج أخرى تتحلى بالحلم الشديد وهي تمتلك من القوة ما تستطيع به رد الصاع صاعين والكيل كيلين، وتظهر الجهل والتغابي، حتى يظن بها الظنون، وهي أعقل الناس وأفهم الناس.... كل هذه سمات تلحظها في صور المفارقة في القرآن الكريم، وإليك بعض هذه المفارقات:

قال الله تعالى: ﴿ ۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ (البقرة: ٤٤).

لاحظ هذه الأطراف:

أولا: قوم يأمرون الناس بالمعروف، لا حظ "يأمرون" وليس يعظون، أو يرغِّبون.

ثانيا: لا يفعلون هم ما يَأمرون به الناس وهنا مكمن العجب.

ثالثا: وهذا الأمر بالقول ومخالفته بالفعل حاصل وهم يتلون الكتب.

هذه الأمور الثلاثة تكوِّن مفردات الصورة – صورة المفارقة التي تحمل التناقض، والعجب، يقول الفخر الرازي (وسبب التعجب وجوه):

الأول: أن المقصود من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إرشاد الغير، وذلك معلوم بشواهد العقل والنقل، فمن وعظ ولم يتعظ فكأنه أتى بفعل متناقض لا يقبله العقل فلهذا قال: "أ فلا تعقلون."

الثاني: أن من وعظ الناس وأظهر علمه للخلق ثم لم يتعظ، صار ذلك الوعظ سببا لرغبة الناس في المعصية، لأن الناس يقولون إنه مع هذا العلم:

لولا أنه مطلع على أنه لا أصل لهذه التخويفات، وإلا لما أقدم على المعصية، ثم أتى بفعل يوجب الجراءة على المعصية، فكأنه جمع بين المتناقضين، وذلك لا يليق بأفعال العقلاء فلهذا قال "أفلا تعقلون".

الثالث: أن من وعظ لابد أن يجتهد في أن يصير وعظه مؤثرا في القلوب ومن عصى كان غرضه أن لا يصير وعظه مؤثرا في القلوب فالجمع بينهما متناقض غير لائق بالعقلاء، ولهذا قال علي (ﷺ): "قصم ظهري رجلان: عالم متهتك، وجاهل متنسك" (١).

إن المفارقة هنا ليست في الفعل المناقض للقول فقط، ولكن في صدور ذلك ممن يتلون الكتاب، وإظهار القول في صورة الأمر، وإبراز المخالفة في صورة النسيان، وكل ذلك يحمل مع التناقض الكثير من العجب، وهذا العجب باعث على التنفير من هذه النماذج، ودافع إلى التبرؤ منها، وخالق حالة من حالات التوتر النفسي كلما اقترب الإنسان من هذه الدائرة، ولقد جاء عن أنس (ﷺ) قال: قال رسول الله (ﷺ) "مررت ليلة أسري بي على قوم تُقرض شفاههم بمقاريض من النار فقلت يا أخي جبريل من هؤلاء؟ فقال: هؤلاء خطباء من أهل الدنيا كانوا يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم"(٢) وقال (عليه السلام) "إن في النار رجلا يتأذى أهل النار بريحه فقيل من هو يا رسول الله؟ قال: عالم لا ينتفع بعلمه}(٣) وقال (عليه السلام): {مثل الذي يعلم الناس الخير ولايعمل به كالسراج يضيء للناس ويحرق نفسه}(٤) وعن الشعبي يطلع قوم من أهل الجنة إلى قوم

(١) مفاتيح الغيب ٣ / ٤٥.

(٢) مسند أحمد بن حنبل ت شعيب الأرناؤط ٢١: ١٠٤ مؤسسة الرسالة.

(٣) حلية الأولياء ٢/ ٥٩.

(٤) المعجم الكبير للطبراني ٢ / ١٦٥ مكتبة العلوم والحكم الموصل، ط الثانية ١٩٨٢.

من النار فيقولون لم دخلتم النار ونحن إنما دخلنا الجنة بفضل تعليمكم؟ !! فقالوا إنا كنا نأمر بالخير ولا نفعله، كما قيل من وعظ بقوله ضاع كلامه ومن وعظ بفعله نفذت سهامه...)(١).

وهذه النصوص تجسد دلالة المفارقة حين ترى الطبيب مريضا، والواعظ منحرفا عن الجادّة، حين ترى القاتل يصرح بالخوف من الله، والعالم يفتي بقتل الناس، حين ترى الخوف من مكانٍ الأصل فيه أن يوفر الأمن للناس، حين ترى الحق باطلا، ويخوفونك منه، وترى الباطل حقا ويدعونك إليه.....كل هذه الصور لا تبعد عن صورة من يأمر الناس بالبر وينسى نفسه، وهو ممسك بالكتاب الذي يحض على الخير، لكنك تسمع شيئا، وترى ما يناقضه، وهذا لا يبعث على الإنكار فقط، بل يبعث على السخرية والتهكم، والتندر.

****

ومن نماذج المفارقة في القرآن الكريم أيضا قول الله تعالى: ﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ (الروم: ٢٨).

يقول الشهيد سيد قطب: (ضرب هذا المثل لمن كانوا يتخذون من دون الله شركاء خلقاً من خلقه: جناً أو ملائكة أو أصناماً وأشجاراً. وهم لا يرتضون أن يشاركهم مواليهم في شيء مما تحت أيديهم من مال. ولا يسوون عبيدهم

(١) مفاتيح الغيب ٣ / ٤٥.

بأنفسهم في شيء من الاعتبار. فيبدو أمرهم عجباً. يجعلون لله شركاء من عبيده وهو الخالق الرازق وحده. ويأنفون أن يجعلوا لأنفسهم من عبيدهم شركاء في مالهم.... ومالهم ليس من خلقهم إنما هو من رزق الله. وهو تناقض عجيب في التصور والتقدير.

وهو يفصل لهم هذا المثل خطوة خطوة: {ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ} ليس بعيداً عنكم ولا يحتاج إلى رحلة أو نقلة لملاحظته وتدبره.. {هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ}.. وهم لا يرضون أن يشاركهم ما ملكت أيمانهم في شيء من الرزق فضلاً على أن يساووهم فيه {تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ}... أي تحسبون حسابهم معكم كما تحسبون حساب الشركاء الأحرار، وتخشون أن يجوروا عليكم، وتتحرجون كذلك من الجور عليهم، لأنهم أكفاء لكم وأنداد؟

هل يقع شيء من هذا في محيطكم القريب وشأنكم الخاص؟ وإذا لم يكن شيء من هذا يقع فكيف ترضونه في حق الله وله المثل الأعلى؟ وهو مثل واضح بسيط حاسم لا مجال للجدل فيه، وهو يرتكن إلى المنطق البسيط وإلى العقل المستقيم: {كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون}(١).

فالمفارقة هنا أنهم ينسبون لله تعالى الشريك، وهو المالك الحقيقي، ويأنفون في الوقت نفسه أن يشاركهم الرقيق في المال وهو ليس ملكا لهم بل هو رزق الله تعالى، فكيف يعقل ادعاء الشريك للمالك، ورفض الشريك لغير المالك، وعرض ذلك في صورة المثل ليفضحهم، ولذلك يقول الطاهر بن عاشور:

(١) تفسير الظلال ٥ / ٤٨٨.

(والغرض من التمثيل تشنيع مقالتهم واستحالة صدقها بحسب العرف، ثم زيادة التشنيع بأنهم رضوا لله تعالى ما لا يرضونه لأنفسهم)([1]) وهكذا ترى في المفارقة صورة من صور الخلل العقلي لدى هؤلاء.

****

ومن نماذج المفارقة قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ... ﴿٨﴾ ﴾(الجمعة: ٨).

فالمتوقع من الفرار النجاة، وفي أسوأ تقدير لدى الفارين من شيء أن يلحق بهم، ولكن بعد زمن طويل... هذا الذي ينتظره الذهن حين يسمع تفرون منه، ينتظر أن يسمع في هذا السياق: فإنه لاحق بكم، أو فإنه مدرككم ولو بعد حين، لكن الآية جاءت بالمعنى غير المتوقع من جهة الإدراك، وإن كان الإدراك في المعنيين قائم، لكن الإدراك في (مدرككم) إدراك متوقع، والإدراك في (ملاقيكم) إدراك غير متوقع، وفيه من المباغتة والمفاجأة ما يستوجب العجب، بل والسخرية من هؤلاء الذين يفرون تجاه ما يفرون منه !! .

وشيء آخر أن الإدراك في قوله (ملاقيكم) أكثر سرعة مما يعني أن سرعة الفرار تستلزم سرعة اللقاء، أو كما يقول البيضاوي (كأن فرارهم يسرع لحوقه بهم)([2]) والعجيب هنا أن الإنسان لا يملك إلا أن يفر من الموت، والموت لا يملك إلا أن يلاقيه، فكل منهما أشبه بالقاطرة التي فقدت السيطرة على كبح

(١) التحرير والتنوير ٨ / ١٦١.

(٢) تفسير البيضاوي ٥ / ٣٣٨.

زمامها، ولذلك تجد في تعليقات المفسرين عبارات تعبر عن ذلك مثل: (ملاقيكم لا محالة – البتة – من غير صارف يلويه).

وهذه المعاني سيقت في مقام الحديث عن أهل الكتاب، ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾ (الجمعة: ٥–٨).

وهو سياق حديث عن ظلمهم، وتفريطهم في أوامر ربهم، ثم زعمهم أنهم أولياء لله، ثم بعد ذلك يفرون من قضاء الله عليهم بالموت... وهذا السياق سياق غضب، وتوبيخ لذلك كان التعبير بالملاقاة، وفيها من الصدمة والترويع ما يجعل الناظر إلى المشهد يستهزئ بهم.

لكن سياق الإدراك جاء في مقام الحديث عن المتكاسلين من المجاهدين، والذين فترت عزائمهم، فكان لا بد من دفعهم إلى الجهاد فقيل ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ ...﴿٧٨﴾ ﴾(النساء: ٧٧–٧٨).

وهذا سياق تنبيه، ورفع للهمم، وتحذير من التهاون في الأوامر، ودفع إلى الجهاد حتى وإن أدى إلى الموت، يقول الشيخ أبو زهرة (وفى التعبير بكلمة "يدرككم "إشارة إلى أن الموت كانه يطلب الإنسان ويتبعه حيثما كان، وفى أى وقت كان، فهو طالب لا بد أن يدرك ولا بد أن يصل؟ لأنه حقيقة محتومة فإن فررتم منه فإنه ملاقيكم، فلا تفروا منه واطلبوا الحق ولو أدى إليه، وما أحسن ما قاله زهير بن أبى سلمى:

ومن هاب أسباب المنايا ينلنه * وإن يرق أسباب السماء بسلم)([1])**

وأعود وأذكّر أن المفارقة في الآية التي سيقت كامنةٌ في المسافة البعيدة بين الفرار من الشيء وما يستتبعه من معنى النجاة أو تأخير الإدراك، ومعنى الملاقاة الذي يستوجب العجلة في اللقاء،فالذي يفرون منه يفرون إليه.

****

ومن نماذج المفارقة قوله تعالى على لسان إبراهيم (عليه السلام):

﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ... ﴿٨١﴾ ﴾ (الأنعام: ٨١).

الاستفهام هنا للتعجب من المفارقة التى كانت منهم، وهى مفارقة عجيبة يخوفون إبراهيم من أن تصيبه آلهتهم بسوء، ومع ذلك لا يخافون هم من إشراكهم بالله ما لم ينزل به سلطانا، والعجب من ناحيتين:

(١) زهرة التفاسير ١/ ١٧٧٣.

أولاهما: أن أصنامهم لا تملك نفعا ولا ضرا.....وثانيتهما – أنهم يخوفون إبراهيم (عليه السلام) ولا سبب للتخويف ولا يخافون وقد توافر سبب الخوف)([1]).

إن المفارقة هنا في المسافة العجيبة بين تعجبهم من عدم خوفه، وتعجبه من عدم خوفهم، فكل فريق متعجب من عدم خوف الآخر من معبوده، لكن المسافة واسعة بين معبودهم وهم الأصنام، ومعبوده وهو الواحد الأحد، والقارئ يلحظ هذا ويرى الفارق الواسع بين عجب كل من الفريقين، وهو فارق يوضح المسافة بين الواقع وما ينبغي أن يكون.

****

ومن نماذج المفارقة في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾ ﴾ (النحل: ٤).

ولعلك تمر على الآية دون الالتفات إلى هذه الحالة العجيبة، حالة هذا المخلوق الذي يرجع أصله إلى النطفة، وينبغي عليه أن يراعي هذه البداية، ويتذكر هذا الأصل، فإن تجاوز فيجب عليه أن يراعي في تجاوزه الحدود، لكن الإنسان انتقل إلى أقصى مدى، انتقل إلى حالة لا يتصورها عقل، إلى الخصام، ومع من؟ مع خالقه ورازقه (ويالها من نقلة ضخمة بين المبدأ والمصير.!!! بين النطفة الساذجة والإنسان المخاصم المجادل الذي يخاصم خالقه فيكفر به ويجادل في وجوده أو في وحدانيته. وليس بين مبدئه من نطفة وصيرورته إلى الجدل والخصومة فارق ولا مهلة. فهكذا يصوره التعبير، ويختصر المسافة بين المبدأ والمصير، لتبدو المفارقة كاملة، والنقلة بعيدة، ويقف الإنسان بين مشهدين

(١) زهرة التفاسيل ٢٥٦٨/١.

وعهدين متواجهين: مشهد النطفة المهينة الساذجة، ومشهد الإنسان الخصيم المبين)([1]).

لعلك تلحظ في تعليق الشيخ سيد قطب معنى البعد المستغرب من هذا الإنسان الذي كان يوما نطفة، ثم انقلب إلى الخصام والعناد!!!! والخصام والعناد لمن؟ !!! لمن خلقه !!!

إنه أمر خارج حدود العقل، والمنطق، لكنه كان. وهكذا ترى في المفارقة بعدا شديدا بين ما هو كائن وما ينبغي أن يكون.

****

ومن نماذج المفارقة أيضا: قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ([2]) وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ (الأنبياء: ٣٦).

---

(١) الظلال ٤ / ٤٥٤.

(٢) **ومعنى: {يذكر آلهتكم} يذكرهم بسوء، بقرينة المقام، لأنهم يعلمون ما يذكر به آلهتهم مما يسوءهم، فإن الذكر يكون بخير وبشرَ فإذا لم يصرح بمتعلقه يصار إلى القرينة كما هنا وكما في قوله تعالى الآتي: {قالوا سمعنا فتى يذكرهم} [الأنبياء: ٦٠]. وكلامهم مسوق مساق الغيظ والغضب، ولذلك أعْقبه الله بجملة الحال وهي {وهم بذكر الرحمن هم كافرون}، أي يغضَبون من أن تذكر آلهتهم بما هو كشف لكُنْهِها المطابق للواقع في حال غفلتهم عن ذكر الرحمان الذي هو الحقيق بأن يذكروه. فالذكر الثاني مستعمل في الذكر بالثناء والتمجيد بقرينة المقام. والأظهر أن المراد بذكر الرحمان هنا القرآن، أي الذكر الوارد من الرحمان. والمناسبة الانتقال من ذكر إلى ذكر. ومعنى كفرهم بذكر الرحمان إنكارهم أن يكون القرآن آية دالة على صدق الرسول (ﷺ)=**

والمسافة هنا مسافة باعثة على التعجب، لأنهم يسخرون من النبي (ﷺ) لعيبه آلهتهم التي نحتت من الصخر، في الوقت الذي يكفرون هم فيه بالخالق سبحانه،: (وهذا أمر عجيب جد عجيب!.. إنهم ليلقون رسول الله (ﷺ) بالهزء، يستكثرون عليه أن ينال من أصنامهم تلك: {أهذا الذي يذكر آلهتكم؟} ولا يستكثرون على أنفسهم وهم عبيد من عبيد الله أن يكفروا به، ويعرضوا عما أنزل لهم من قرآن.. وهي مفارقة عجيبة تكشف عن مدى الفساد الذي أصاب فطرتهم وتقديرهم للأمور)([1]).

وحاول أن تضع الصورتين أمام عينك ليتبين لك الفاصل الكبير بينهما، وليتبين لك الصورة الأحق بالاستنكار والتحقير، صورة من يستهزئ بالأصنام ويذكرها بالسوء، وصورة من يستهزئ بالنبي المرسل ويذكره بالسوء؟

إن وضع الصورتين بجوار بعضهما يوضح بُعد المسافة الفارقة بين التوجهين، وهذا الذي يستشعره القارئ هو مراد المتكلم من المفارقة. إن الآية تريد أن يستشعر القارئ هذا البعد، أو إن شئت قل: تريد أن يتحول الفراغ المعنوي إلى فراغ حسي داخل النفس، يبعث على الوحشة عند الشعور بهذه

= فقالوا: {فليأتنا بآية كما أرسل الأولون} [الأنبياء: ٥]. وأيضاً كفرهم بما جاء به القرآن من إثبات البعث. وعبر عن الله تعالى باسم {الرحمان} تَورُّكاً عليهم إذ كانوا يأبون أن يكون الرحمان اسماً لله تعالى: {وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمان قالوا وما الرحمان أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفورا} في سورة [الفرقان: ٦٠]. وضمير الفصل في قوله تعالى: {هم كافرون} يجوز أن يفيد الحصر، أي هم كافرون بالقرآن دون غيرهم ممن أسلم من أهل مكة وغيرهم من العرب لإفادة أنّ هؤلاء باقون على كفرهم مع توفر الآيات والنذر.ويجوز أن يكون الفصل لمجرد التأكيد تحقيقاً لدوام كفرهم مع ظهور ما شأنه أن يقلعهم عن الكفر.التحرير والتنوير ٩/ ٢٣٤.

(١) الظلال ٥ / ١٥٧.

المسافة بين استهزاء واستهزاء، فالتناقض بينهما على أشده، وهو تناقض يُولِّد مع الوحشة كثيرا من العجب، أو السخرية والتهكم.

هذه بعض الملامح التي ظهرت من خلال الشواهد الشعرية، وكذا الشواهد القرآنية، فهل يفتح لنا الحديث الشريف بابا آخر في المفارقة؟ تعال نر....

المفارقة في الحديث النبوي

إذا كانت المفارقة شاخصة في اللسان العربي القديم، وحاضرة في القرآن الكريم فهي كذلك لا تغيب عن الحديث النبوي مما يؤكد حقيقة لا ينبغي أن تغيب عنا، وهي أن هذا اللون من التعبير له جذوره في النفس العربية قبل أن يكون له جذوره في اللسان العربي المبين، ومن كلام المعصوم (ﷺ) الذي يظهر فيه هذا اللون من الدلالة ما أخرجه الإمام أحمد من حديث أنس (رضي الله عنه)، عن النبي (ﷺ)، قال: بين يدي الساعة سنون خداعة، يتهم فيها الأمين، ويؤتمن فيها المتهم، وينطق فيها الرويبضة، قالوا: وما الرويبضة؟ قال: السفيه ينطق في أمر العامة، وفي رواية الفاسق يتكلم في أمر العامة)([1]).

فحين ترى التافه يفتي في أمر عامة الناس، ويرسم لهم طريق حياتهم ويحدد لهم معايشهم، في الوقت الذي يسكت فيه فحول الرجال فإن الأمر جلل، ولذلك قيل عن هذا الوقت إنها سنون خداعات، ترى فيها الأحوال مقلوبة، يتخذ الناس الجهال علماء سواء مات أهل العلم أم كانوا أحياء، ويتسود على الناس ولاة الجور وحكام الجور عند غلبة الباطل وأهله.

هذه السنون الخداعة تجسد لك المفارقة فيتهم فيها الأمين، ويؤتمن فيها المتهم، وتوكل أمور الناس إلى ناقص العقل والدين، فالكاذب عنده صادق، والصادق عنده كاذب، والخائن أمين والأمين خائن، وكل ذلك ثمرة مرة لتوسيد الأمر إلى غير أهله، وساعتها لا تنتظر إلا كل غريب و ولا تتوقع إلا كل مالا يتوقع.

---

(١) جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي ص ٤١ مؤسسة الرسالة بيروت لبنان الرسالة ١٤١١-١٩٩١ ط الأولى ت الأرناؤوط.

والذي يعنيني هنا جملة "وينطق فيها الرويبضة"(١) وليس معنى ينطق هنا الكلام العادي، بل يتحدث في الشؤون العامة للناس، فيرسم معالم الطريق السياسي، والاقتصادي، والاجتماعي، بل والأخلاقي، وليس العجب في هذا فقط لكن العجب في أن ترى الناس يسمعون له،ويطبقون ما يقول، ويثنون على كلامه، ويدعون الناس إلى الانضمام إليهم.

إنه أمر أشبه بالعجائب، وهنا تكمن المفارقة، فالمفارقة تجسد لك المسافة بين المتناقضين حين يلتقيان، وتريك اللا منطق، وتجبرك على السخرية، وتنتزع منك الاستهزاء. ولذلك تشعر وأنت تتحدث عن المفارقة بضياع الأصول، وتزلزل القواعد، واختفاء القيم والأعراف، ففي المفارقة ضياع للأعراف، وتوقع كل عجيب، وكأنها علامة من علامات الساعة.

ومن نماذج المفارقة في الحديث النبوي ما أخرجه الإمام أحمد في مسنده والبخاري في الأدب المفرد من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص قال: (كنا عند رسول الله (ﷺ) فجاء رجل من أهل البادية، عليه جبة سيجان، مزرورة بالديباج، فقال: ألا إن صاحبكم هذا يريد أن يضع كل فارس بن فارس، ويرفع كل راع بن راع، قال: فأخذ رسول الله (ﷺ) بمجامع جبته وقال: ألا أرى عليك لباس من لا يعقل.... ثم قال: إن نبي الله نوحا (ﷺ) لما حضرته الوفاة قال لابنه: إني قاص عليك الوصية: آمرك باثنتين، وأنهاك عن اثنتين. آمرك (بلا إله إلا الله)، فإن السماوات السبع والأرضين السبع لو وضعت في كفة ووضعت لا إله الا الله في كفة رجحت بهن "لا إله الا الله"، ولو أن السماوات السبع والأرضين السبع كن حلقة مبهمة قصمتهن لا إله الا الله، و(سبحان الله وبحمده)

(١) يقول ابن فارس في المقاييس مادة (ربض) (الراء والباء والضاد أصلٌ يدلُّ على سكونٍ واستقرار..... والرُّوَيْبِضَة" الرجُل التافِه الحقير. وسمِّي بذلك لأنه يَـربِض بـالأرض؛ لقلّته وحقارته، لا يُؤبه له) ٢/ ٣٩٧.

فإنها صلاة كل شيء، وبها يرزق الخلق، وأنهاك عن (الشرك والكبر) قال: قلت أو قيل: يا رسول الله هذا الشرك قد عرفناه، فما الكبر؟ قال: أن يكون لأحدنا نعلان حسنتان لهما شراكان حسنان؟ قال: لا. قال: هو أن يكون لأحدنا حلة يلبسها؟ قال: لا. قال: الكبر هو ان يكون لأحدنا دابة يركبها؟ قال: لا. قال: أفهو ان يكون لأحدنا أصحاب يجلسون إليه؟ قال: لا. قيل: يا رسول الله فما الكبر؟ قال: سفه الحق وغمص الناس)(١).

وهذا الحديث يجمع مفارقتين، المفارقة الأولى: فعل هذا الرجل، وجرأته على رسول الله (ﷺ)، وغضب النبي (ﷺ) منه و وقيامه إليه، وجبذة بشدة،ثم الإعراض عنه بالحديث عن قصة نوح مع ولده !!!! وترك التعليق على كلامه مباشرة.

المفارقة الثانية: الادعاء بأن رسول الله (ﷺ) يريد رفع كل راع بن راع، ووضع كل فارس بن فارس، ثم يكون هذا الاتهام من أعرابي، قادم من البادية، يلبس لباس الملوك حيث جاء يلبس جبة من سيجان مزرورة بالديباج(٢).

في المفارقة الأولى يتبين المسافة الواسعة بين موقفين، موقف الصفح والإعراض تجاه موقف التطاول والتجني، والمسافة هنا تبدو شاسعة لعدة أسباب، منها أن الأعرابي وحده، والرسول في صحبة أصحابه، ومنها أنه لم يكن هناك من سبب يدعو إلى هذا التطاول، فالرجل قادم من البادية، ولم يسبق بينه وبين رسول الله كلام، ومنها أن المتحدث راع بن راع، فهو أعرابي من البداية، ولا عمل لهؤلاء إلا الرعي ثم هو يرمي رسول الله بهذا.

---

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل ٢ / ١٦٩ وقال شعيب الأرناؤوط حديث صحيح.

(٢) سيجان (وهي الطيالسة المدورة الواسعة الضخمة الغليظة السود، وفي حديث لأبي هريرة: إن أصحاب الدجال عليهم السيجان و مزرورة: بمعنى: مكفوفة أو مشدودة، والديباج: نوع من الحرير.

والرعي ليس سبة يرمى بها الأنبياء، فما من نبي إلا ورعى الغنم، لكن حين يوضع الراعي في مقابلة الفارس، فالمقام مقام ذم وتنقيص، ثم يأتي هذا التنقيص من رجل من البادية فهذا من أعجب العجب، والموقف يدعو بلا شك إلى السخرية الممزوجة بالغضب، لأنها تحمل معاني الكبر ممن لا يتوقع منهم الكبر وهم أهل البادية، لذلك لم يعلق رسول الله على كلامه وإنما علق على المشهد كاملا بذكر قصة سيدنا نوح.

وهذه هي المفارقة الثانية، وهي الكبر ممن لا تتوفر لديهم أسباب الكبر والخيلاء، فكون هذا الرجل أعرابيا، لا يحسن معه لبس الديباج واتهام خير الناس بهذه التهم، هل رأيتم أحدا يتهم رسول الله (ﷺ)؟! فما بالكم إن كان أعرابيا؟ !، وماذا تقولون لو جاء لابسا ثوبا من سيجان مزرورة بديباج؟ ! إنه مشهد اشبه بالرسم الساخر، حيث ترى الكبر ممن لا يتوقع منه الكبر، وترى التعالم، وادعاء المعرفة ممن هم أشد كفرا ونفاقا.

لكن يبقى الوقوف أمام استحضار وصية سيدنا نوح لابنه، وعلاقتها بهذا المشهد الساخر، إن القصة التي ذكرها رسول الله استُحضرت لتبين طبيعة الكبر، وكأن رسول الله (ﷺ) أراد أن يبين صفة الكبر في هذا الأعرابي، فاستعار قصة سيدنا نوح لبيان حقيقة الكبر، وأنه بطر الحق ورفضه، بالإضافة إلى غمص الناس، أي احتقارهم، وانتقاصهم، ورميهم بما ليس فيهم، وهذا ما فعله الأعرابي، حين اتهم رسول الله (ﷺ) بما ليس فيه، لذلك كان الرد السريع في أسلوب الكناية (أرى عليك ثياب من لا يعقل).

وبعد هذه الجولة من المفارقات في الشعر العربي، وفي البيان القرآني، والبيان النبوي، أنتقل بك إلى نمط آخر من المفارقة لعلها تزيدك وضوحا للمعنى، وتكشف لك وجها آخر من أنواعها.

المفارقة في المواقف

لا تقتصر المفارقة على رسم المعاني المتناقضة، ولكنها تتسع لتشمل المفارقة في أفعال الشخصية الواحدة، ومن أعظم الشخصيات التي تجسد المفارقة، أو تدور حولها المفارقة شخصية سيدنا موسى (عليه السلام) حيث أحاطت به عدة مفارقات:

أول هذه المفارقات: موقف أمه معه، حين تَوَاصَل خوفُها عليه، لأن المتوقع عند الخوف هو الاحتياط، وستر الوليد عن العيون، أو الهروب به من المكان، لكن موقف أم موسى كان عجيبا، حيث زادت من جرعة الخوف عليه ضعفين، وأصبح سيدنا موسى في خوفين، وليس في خوف واحد، الخوف الأول هو فرعون وجنوده الذين يتربصون بكل وليد، والخوف الآخر هو الغرق في اليمّ، حين ألقته الأم في الماء ليجتمع على موسى صنفان من الهلاك،، ولا تفسير لذلك إلا الإيمان بالله تعالى، والتوكل عليه وحده والامتثال لأوامر السماء حين جاء الوحي بـــ (ألقيه في اليم)!!

فالمفارقة: هنا في كون النجاة كامنة في مضاعفة وسائل التهلكة وليس في التخلص منها.، وهذا يشبه تماما أن تقول لرجل شرب سُمّا إذا أردت الشفاء فأحرق نفسك.!!!

والمفارقة الثانية: في الغاية التي التقط من أجلها الوليد من الماء، فغاية آل فرعون حين التقطوه، وتحدثوا في شأنه،أن يكون هذا الوليد نافعا لهم، أو يكون ولدا بارا بهم، وما تم الالتقاط إلا من أجل ذلك، وما استبقيت حياته إلا من أجل ذلك، لكنه في الحقيقة كان لفرعون عدوا وحزنا، وهذه المفارقة يستشعرها القارئ وهو ينصت إلى آل فرعون، ورغبتهم في نفع هذا الغلام، وهم يتحدثون عن كونه وليدا خاصا بهم، وفي الوقت نفسه يقرأ المشاهد كتاب الغيب لهم، لأن

الغيب كان يخبئ لهم العداوة والحزن من هذا الغلام الذي سينهي أسطورة الفرعون المدعي الألوهية..

والمفارقة الثالثة: في موقفين متعلقين بسيدنا موسى عند شبابه في المدينة حيث قضى الله تعالى أن تكون الوكزة التي وكزها موسى للرجل قاتلة له، فأصبح سيدنا موسى في عرف الناس ساعتها قاتلا، ويخرج سيدنا موسى ثم يرجع إلى المدينة داعياً إلى الله تعالى، وليس متهما بجريمة القتل.

والمفارقة الرابعة: في رحلة سيدنا موسى (عليه السلام) مع الخضر حيث يعترض على قتل الغلام قائلا: (أقتلت نفسا زكية بغير نفس) مع أنه (ﷺ) ابتلي بموت الرجل المصري حين وكزه، وقال "رب إني قتلت منهم نفسا" فهو (ﷺ) يعترض على أمر فعله، واختبر به، وهذه تمثل مفارقة .....

والمفارقة الخامسة اعتراضه (ﷺ) على إسداء المعروف، وبناء الجدار لقوم أبوا ضيافتهم، وهم عابروا سبيل، وكان الأولى عنده أخذ الأجرة على هذا البناء، كي يستطيعوا شراء الطعام، وفي الوقت الذي يعترض فيه على بناء الجدار يحدثنا القرآن أنه (ﷺ) في رحلته إلى مدين سقى للمرأتين دون أن يسأل الأجر، فالمفارقة هنا في الاعتراض على بناء الجدار لقوم منعوهم الطعام في الوقت الذي يقدم هو المعروف دون أجر فكيف يعترض على شيء فعله....وكل هذه الأمور تجسد المفارقة العجيبة التي ترسم لنا صورة ناصعة لسيدنا موسى (ﷺ).

فإذا تركنا هذا وتصفحنا صفحة أخرى للمفارقات نقرأ صفحة شاخصة في كل زمان ومكان، وهي أن يصاب كثير من الناس بالأمر الذي يعالج به غيره، فترى في آل بيت الأنبياء كفارا، وهذا واضح في ابن سيدنا نوح وزوجته،

وزوجة سيدنا لوط، في حين ترى في آل بيت مدعي الألوهية من يؤمنون بالله تعالى كامرأة فرعون، وهذه من أعجب المفارقات.

وهناك نوع آخر من المفارقت وهو أن ترى الطبيب يصاب بالداء الذي تخصص في علاجه، فيصاب طبيب القلوب بداء في قلبه، وترى طبيب العيون يصاب بداء في عينه، وهذه تعد من المفارقات التي يجعلها الله تعالى آية للناس.

وفي باب العلم ترى من اهتم بالتراجم والأعلام ثم لا تجد له ترجمة وافية بعد موته مثل ابن سعد صاحب الطبقات الكبرى، حيث ترجم لعديد من الناس، ومات ابن سعد (ولم نجد من يكتب عنه ترجمة موضحة.) وهذا ما أظهره إحسان عباس محقق الكتاب(١).

وهكذا كلما قلبت النظر رأيت الدنيا تزيدك بالمفارقات، وكأنها بنيت على ذلك.

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد تحقيق إحسان عباس ١/ ٢.

المفارقة في اللفظ المفرد

لا تقتصر المفارقة على المعاني المتقابلة، ولا المواقف العجيبة، بل إنك قد تلحظ المفارقة بين لفظتين ترسم كل منهما بصوتها عكس ما تتوقعه، وانتبه معي إلى هذا المثال:حين أذكر لفظة (الإدغام) ما الذي تستحضره؟

إنك تستحضر إدخال شيء في شيء، بحيث أنطق الحرفين حرفا واحدا مدغما، ودعني أسألك ثانية: هل هذا المعنى موجود في لفظة الإدغام؟ أعني: هل في كلمة (الإدغام) حرفان مدغمان؟ الجواب: لا. وأعود وأذكر لك كلمة (الفك) ما الذي تستحضره؟.

إنك تستحضر حرفين كانا مدغمين، ثم حدث لهما انفصال كل منهما عن الآخر.

وأسألك ثانية: هل هذا المعنى موجود في لفظة (الفك)؟ الجواب: لا.

إذن لفظة (الإدغام) لا يوجد فيها إدغام، ولفظة (الفك) يوجد فيها إدغام ولا يوجد فيها فك، وهذه تمثل نوعا من المفارقة في هذين اللفظين، فاللفظ دل على معنى يناقض ما يحمله صرفياً.

وهناك نوع آخر من المفارقة في اللفظ حيث ترى اللفظ يستخدم كوسيلة للنجاة مرة، ووسيلة للهلاك أخرى، ومن ذلك لفظة "اليم" ففي قصة موسى تلحظ أن لفظة (اليم) جاءت مرة لتكون وسيلة نجاة لموسى وذلك في قوله تعالـــى: ﴿ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ ﴿٧﴾ ﴾ (القصص: ٧). في الوقت الذي دل اللفظ ذاته على الإهلاك في قوله تعالى: ﴿ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِي ٱلْيَمِّ ۖ...﴿٤٠﴾ ﴾(القصص: ٤٠) ففي كل من الحالتين تم الإلقاء في اليم، لكن اليم كان نجاة لسيدنا موسى، وهلاكا لفرعون، وهذا باب آخر من أبواب المفارقة..

واقعنا والمفارقة

وليست المفارقة بعيدة عن واقعنا الذي نعيشه،فحياة الناس اليوم تقوم على المفارقات، مفارقة بين ماض يزخر بالمجد و وحاضر يضج بالهوان، بين أمة يدعوها كل شيء إلى التوحد بداية من الدين، واللغة،والتاريخ، في الوقت الذي ترى فيه واقعا لا يتفق فيه أحد مع أحد.

ولا تكمن المفارقة هنا فقط، بل بين عالم اليوم وما فيه من ضعف وهوان حتى أشفق علينا العدو قبل الصديق، وعالم الأمس يوم أن ملكنا هذه الدنيا القرون، وأخضعها جدود خالدون....

إنها مفارقة هائلة بين زمان دخل فيه ربعي بن عامر على رستم محتقرا مزدريا يهتك سجاجيده بحربته، ويخاطبه بما هو محفوظ للكافة،وزمان نتلمس فيه رضى الغرب وطعامه، ومنتجاته.

وليس ببعيد عن عالم الناس عالم الأدب، فأيام كان الناس ناساً كان الشعر منبرا يُعلِّم ويوجه ويربي، كان البخيل يقرأ الشعر فيتعلم الجود، وكان الجبان يقرأ الشعر فيكسر حاجز الخوف في نفسه وينزل إلى الميدان، لكن شعر اليوم ينزع عنك صفاتك الحميدة، ينزع عنك لباس التقوى، بل ينزع عنك دينك، وراجع في ذلك شعر أدونيس، أو السياب أو البياتي، أو عبد الصبور، أو حجازي.... والطابور طويل.

ثم مفارقة أخرى في الشعر وهي أن الشعر لون من البيان، لكنه تحول إلى طلسم وألغاز وحزلقة فارغة، ولا يعد الشعر شعرا عند هؤلاء إلا إذا خرجت منه خالي الوفاض،لم تفهم شيئا، والويل كل الويل لشاعر فهمت منه شيئا، فهذا انتقاص في شاعرية الشاعر، إذ كيف تلج عالم الشاعر الذي لا ينبغي لأحد الولوج إليه؟ ! ألم أقل لك إن واقعنا يجسد قمة المفارقة.

وعليه فالمفارقة قد يجسدها اللفظ، وقد يجسدها السياق، أو الموقف، وأهم ما يميز المفارقة اللفظية أنها من صنع المتكلم، فهو الذي يرسمها، ويدل عليها بلفظه حين يأتيك باللفظ لترى من خلاله التعارض الصارخ بين معنيين، لكن المفارقة السياقية أو التي تنبع من الموقف فقد لا يكون للمتكلم دخل فيها، فهي من استنباط المتلقي، وهو الذي يكتشف الصدام بين المعنيين.

عناصر المفارقة

للمفارقة عدة عناصر رئيسة وهي (عنصر التضاد، وعنصر المفاجأة، وعنصر السخرية) وهذه العناصر مجتمعة تحدد المعالم الأساسية للمفارقة، وإذا غاب عنصر منها ابتعدت المفارقة عن صورتها المثلى التي تصنع في الكلام ما يشبه الصدمة، وأول هذه العناصر التضاد.

أولا: عنصر التضاد:

فهناك طرفان، بينهما مسافة طويلة، يمثل كل طرف الوجه المقابل للطرف الآخر، وليس الأمر هنا كما في الطباق البديعي، فليس الأمر متوقفا على اختلاف أمرين، بل إن المفارقة ترسم لك حالة الصدام بين الشيئين، حيث تفاجأ النفس بما لا تتوقعه، ويفجؤك الكلام بغير ما تتخيله، فأنت في حالة ترقب لمعنى ما، وتصدم بنقيضه، فتستشعر الفارق الهائل بين الأمرين، والمتلقي يلعب في قياس هذه المسافة بين الطرفين المتناقضين دورا رئيسا، لأنه هو الذي يستشعر هذا البعد بين الطرفين،ومن خلال هذا يستشعر الفارق سواء كان كبيرا، أو صغيرا، وكلما كانت المسافة بين الطرفين بعيدة زادت المفارقة جمالا، وأثرا على المتلقي وحاول أن تتحسس هذه المسافة حين تستحضر قوله تعالى: ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾ ﴾ (النحل: ٤).

ثانيا: عنصر المفاجأة:

للمفاجأة أثر بالغ في بناء المعاني، فهي عنصر فاعل في إيصال دلالات خاصة عن طريق الانتباه المصحوب بالحذر، والمفاجأة غالبا تبهت المفجوء، وتأتيه بالمعنى من حيث لا يحتسب، مما يجعله في حالة ضعف فيصيبه من الذهول الكثير، زد على ذلك أن عنصر المفاجأة يربك المتلقي ويفقده السيطرة

على مداركه فيتمكن المعنى منه قبل أن يحتاط له، وهذا ضرب آخر من ضروب تمكين المعاني في النفس قل الالتفات إليه، والمفارقة تعتمد على المفاجأة، لأنها تحمل المعنى غير المتوقع، وترسم الصورة غير المنتظرة، فهي ترسل إلى المتلقي المعاني المجهولة، أو المعاني غير المنتظرة، وهذا يهدم ما تعارف عليهالقدماء من أن وسائل الحسن تكمن في أن يدل اول البيت على آخره، وصدره على سائره.

ثالثا: عنصر التعجب:

وهو عنصر مولد من اجتماع العنصرين السابقين، فلا ترى مفارقة إلا وترى معها تعجب أو تعجيب من هذا البون الشاسع بين الطرفين، ومن هذه الدلالة الغريبة التي لم تكن في الحسبان.

وجه البلاغة في المفارقة

يوضح الجاحظ قيمة المفارقة، وأثرها في النفوس حين يحكي عن سهل بن هارون، ويقول: (قال سهل بن هرون: لو ان رجلين خطبا، أو تحدثا، أو احتجا، او وصفا، وكان أحدهما جميلا جليلا بهيا جسيما نبيلا وذا حسب شريفا، وكان الاخر قليلا قميئا وباذ الهيئة دميما وخامل الذكر مجهولا، ثم كان كلاهما في مقدار واحد من البلاغة، وفي وزن واحد من الصواب لتصدع عنهما الجمع، وعامتهم تقضي للقليل الدميم على النبيل الجسيم، وللباذ الهيئة على ذي الهيئة، ولشغلهم التعجب منه عن مساواة صاحبة، ولصار التعجب منه سببا للعجب به، ولكان الإكثار في شأنه علة للإكثار في مدحه؛ لأن النفوس كانت له أحقر، ومن بيانه أيأس، ومن حسده أبعد، فإذا هجموا منه على ما لم يحتسبوه، وظهر منه خلاف ما قدروه تضاعف حسن كلامه في صدورهم، وكبر في عيونهم؛ لأن الشيء من غير معدنه أغرب، وكلما كان أغرب كان ابعد في الوهم، وكلما كان أبعد في الوهم كان اظرف، وكلما كان اظرف كان أعجب، وكلما كان أعجب كان أبدع، وإنما ذلك كنوادر كلام الصبيان، وملح المجانين، فإن ضحك السامعين من ذلك أشد، وتعجبهم به أكثر، والناس موكلون بتعظيم الغريب، واستطراف البديع،

وعلى هذه السبيل يستطرفون القادم عليهم ويرحلون الى النازح عنهم ويتركون من هو أعم نفعا وأكثر في وجوه العلم تصرفا وأخف مؤونة وأكثر فائدة)(١).

راجع هذه العبارات التي تجسد لك طبيعة المفارقة، فالحسن يتضاعف إذا خرج الشيء من غير معدنه، وحين تسمع من الصبيان نادرة فأنت في موقف مفارقة، وحين ترى الحكمة خارجة من فم المجانين فأنت في موقف مفارقة،

(١) البيان والتبيين للجاحظ ١ / ٦٢.

وكل ذلك له من الأثر في نفوس الناس فتراهم يعجبون، ويستظرفون ويستطرفون، ويعظمون مثل ذلك، لأنهم أشد كلفا بالشيء إذا خرج من غير معدنه، وهل ترى تبسم سيدنا سليمان، وضحكه إلا من سماعه لهذه النملة وهي تحذر قوما قائلة: (يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم)!!! إن المفارقة هي رسم لهذه اللوحة التي تريك العجائب والغرائب، والمفارقة تنتزع منك آهات التعجب، فترحم تارة، وتستنكر أخرى، وتسخر مرة ثالثة، ولكن في جميع الأوقات ترى النفس مرتبطة بها، معجبة بما ترسمه من تناقض، وهذا الأثر النفسي هو الذي أبقى على المفارقة في النفوس منذ القدم رغم خلو المكتبة من قاعدة تحكم هذا اللون من التعبير.

الخاتمة

في هذه الورقات السابقة بناء للبنة من لبنات المعاني البلاغية، وهي المفارقة، هذا المصطلح الذي اعتبره بعض الكتاب وليد الثقافة الغربية، وأنه من الغموض بمكان، وأن اللغة العربية، واللسان العربي لم يعرف هذه الدلالة، وبعد تجوال في اللسان العربي، تبين أن هذه الدلالة قائمة شاخصة في اللغة العربية منذ العصر الجاهلي، وأن العرب استعملوا المفارقة قديم وحديثا، لكن الغائب عنهم – فقط – هو المصطلح، ولقدقام البحث بالتعليق على الشواهد العديدة، والإشارات الكثيرة التي تناولها علماؤنا، وكلها تصرح بدلالة المفارقة.

ظهر ذلك في الشعر الجاهلي عند الشنفرى، وكذا الشعر الإسلامي، كما ظهر في القرآن الكريم، والحديث الشريف، بل وفي كلام العلماء مثل الجاحظ، وأبي حيان التوحيدي، كما أنها موجودة في اللفظ المفرد، وفي الجملة، وفي التراكيب، وفي الأشخاص والمواقف والسياقات، فهي ليست وليدة نمط واحد من التعبير، بل إنها مستخرجة ومستنبطة من وسائل شتى، ثم بين البحث عناصر المفارقة التي تظهر في أغلب الأمثلة، وهي عنصر التضاد، وعنصر المفاجأة، وعنصر التعجب.

ولم يبق إلا أن يقترح هذا البحث إضافة مصطلح "المفارقة" إلى علم البديع، فهو أقرب إلى باب المقابلة، أو الطباق، ويجوز أن يكون لونا بذاته منفصلا عنهما، لكنه متصل بهما لأن المفارقة قائمة على التناقض بين الأشياء، و يجوز إلحاقه بالباب الرابع من أبواب علم المعاني، وهو باب "متعلقات الفعل" لأن القضية في المفارقة قضية معان، وليست قضية شكل، وباب متعلقات الفعل يشمل التعلق بالفعل، أو ما يتصل بالفعل، أو ما في معنى الفعل، ويجوز هنا أن تتسع الدائرة لتشمل كل صور المفارقة، وهي كثيرة..

وبعد: فهذا جهد المقل، وقد جاء في وقت يعيش فيه الوطن في ظروف استثنائية، وقد تم الانتهاء منه على عجل، فإن كان فيه من صواب فلله الحمد أولا، وآخراً، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أ.د. سعيد جمعة

فهرس العناوين

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٥٣
المفارقة في اللغة	٥٧
المفارقة في الاصطلاح	٦٠
المفارقة في الشعر العربي	٦٣
المفارقة في القرآن الكريم	٧٢
المفارقة في الحديث النبوي	٨٣
المفارقة في المواقف	٨٧
المفارقة في اللفظ المفرد	٩٠
واقعنا والمفارقة	٩١
عناصر المفارقة	٩٣
وجه البلاغة في المفارقة	٩٥
الخاتمة	٩٧
فهرس الموضوعات	٩٨